

**تحول المجتمع السكندري من اللغة
اليونانية واللغات الأخرى إلى اللغة العربية
في ظل الفتح العربي**

إعداد

إبراهيم إبراهيم عناني

باحث ومؤلف في التاريخ الإسلامي

1. $\frac{1}{x^2} = x^{-2}$

$$\frac{d}{dx} x^{-2} = -2x^{-3}$$

$$= -\frac{2}{x^3}$$

$$= -\frac{2}{x^2 \cdot x} = -\frac{2}{x^3}$$

$$= -\frac{2}{x^3} = -\frac{2}{x^3}$$

تحول المجتمع الإسكندري من اللغة اليونانية واللغات الأخرى إلى اللغة العربية في ظل الفتح العربي

إن مجتمع الإسكندرية منذ بدأ يتكون فوق هذه البقعة المطلة على البحر المتوسط حيث مدخل مصر الشمالي، والقريبة من حدودها الغربية حيث مدخلها الغربي، إن المجتمع الإسكندري بموقعه هذا يقدم نموذجا فريدا بين مجتمعات المدن المصرية، لا ترجع أهميته إلى أن الإسكندرية كانت عاصمة البلاد المصرية طوال عدة قرون منذ تأسيسها أيام الإسكندر ٣٢٢ ق.م. إلى أن فتحها العرب المسلمون في القرن السابع الميلادي، فنقلوا العاصمة إلى مدينة جديدة هي القسطنطينية التي أقاموها قرب التقاء قرعى النيل الكبيرين. لقد كان ميناء الإسكندرية في مكانها هذا يهدف إلى ربط مصر بعالم البحر المتوسط، وهو العالم الذي كانت تسوده الثقافة اليونانية كجزء من خطة كبيرة ترمي إلى نشر الثقافة اليونانية في شتى أرجاء الشرق القديم. وكانت الإسكندرية المصرية واحدة من (إسكندريات) عدة أقامها اليونان في مراكز هامة على طول طريق إمبراطورية الإسكندرية الأكبر- ولكن لم يكن من طبيعة الأشياء أن تظل الإسكندرية المصرية وهي على جزء من التراب المصري مدينة يونانية، حتى وإن كانت عاصمة الدولة البطلمية، وهي إحدى الدول الإغريقية الكبرى، إمبراطورية الإسكندر الأكبر، فما لبثت صيغتها المصرية، كأحدى مدن مصر وإن كانت قد نجحت في المواصلة بين الثقافة والمصالح والقومات المصرية واليونانية وكان العامل الأكبر الذي

مكنها من ذلك هو حرصها على أن تفيد من موقعها على البحر من ناحية وعلى الأرض المصرية من ناحية أخرى، ولقد تعرضت الإسكندرية عبر تاريخها الطويل إلى أحداث وحروب وصراعات - وفي غمرة هذه الأحداث ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وتلا ذلك فتح مصر على يد عمرو بن العاص في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقبل الفتح الإسلامي كان العرب يقدون إلى مصر منذ أقدم العصور للتجارة وذلك عن طريق البحر الأحمر ووبيان الصحراء الشرقية حتى أن المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابون المتوفى نحو سنة ٢٥ بعد الميلاد قال عن مدينة قفط في الصعيد أنها نصف مدينة عربية - ووقد على مصر للتجارة - زمن الجاهلية - عدد من الشخصيات العربية التي اشتهرت في الإسلام نذكر منهم عثمان بن عفان وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبه. - وحين أرسل الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لفتح مصر في سنة ١٨ هـ (٦٢٩م) كان العرب يدركون تماما أهمية الإسكندرية، وقيل أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية أول مرة ورأى بيوتها وبناتها، هم إن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو : إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى القسطنطينية. أي أن المؤرخين العرب يرجعون عدم اختيار الإسكندرية عاصمة لمصر بعد فتح العرب لها إلى تحفظ الخليفة عمر بن الخطاب بالنسبة لركوب البحر. - وكانت

الإسكندرية حين فتح العرب مصر مدينة بيزنطية أى رومية أو يونانية، فكان معظم سكانها من الروم وكان يسيطر على مجتمعيها العادات والتقاليد والثقافة اليونانية. وهذا يفسر إعجاب العرب بمدينة الإسكندرية، وسرعان ما اختط العرب الفسطاط فكانت كل خطة تسكنها قبيلة، كذلك نزلت قبيلة همدان موضع الجيزة واختطوا فى الجيزة خططا عرفت بهم مثل خطط الفسطاط - ويذكر المؤرخون أن قوما من العرب نزلوا فى الإسكندرية عقب الفتح على أن الإسكندرية لم يكن فيها خطط وإنما كانت «أثناذ» أى من أخذ مثلاً نزل فيه، ويقال أن الزبير بن العوام اختط بالإسكندرية أنى أن العرب الذين استقروا فى مصر بعد الفتح العوسى ومعظمهم من عرب الجنوب أو اليمانية كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الإسكندرية. وقد حرم عليهم عمر بن الخطاب الأشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب. ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية. ولقد كانت الفسطاط مدينة عربية إسلامية وسط المحيط المصرى القبطى، أما الإسكندرية فكانت مأهولة بسكانها من الروم واليهود والاقباط ويقدر «موتيه» عدد سكان الإسكندرية فى العهد البيزنطى بنحو ٢٠٠.٠٠٠. والمعروف أن اتخاذا العرب للفسطاط عاصمة لهم بعد الفتح، أثر - إلى حد ما - على مركز الإسكندرية العاصمة السابقة وخاصة بعد أن فتح العرب الإسكندرية وأجلوا قسما كبيرا من سكانها من الروم. ولكن الإسكندرية سرعان ما أخذت تسترد ما كان لها من ازدهار ونشاط. وبدأت تور صناعة السفن تستعيد نشاطها وتساهم فى صناعة السفن منذ خلافة عثمان بن عفان وولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح. كذلك استأنفت مصانع النسيج

نشاطها كما عاد للإسكندرية نشاطها. التجارى القديم بين الشرق والغرب - وكما كانت القسطنطينية عاصمة مصر ومقر حكومتها، فقد كانت الإسكندرية عاصمة مصر الثانية ومينائها الهام ومقر البطريركية - ومنذ الفتح العربى اهتم عمرو بن العاص بإنشاء مسجدا فيها كما أنشأ مسجدا فى القسطنطينية عاصمة البلاد - وظلت مدينة الإسكندرية تحتفظ بمكانتها الخاصة التى كانت لها منذ عصر البطالمة فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى عصر الأخشيديين فى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى، إذ كانت تعتبر فى معظم الأحيان جزءاً مستقلاً عن مصر حتى فى القضاء، كما كانت تعتبر قسماً مستقلاً بجبايته ويلاحظ ذلك عندما وصل إلى الأمير أحمد بن طولون، تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسى، فإنه لم يكن بين والى الإسكندرية والى مصر معاملة ولا خطاب بل كانوا يتهانون الهدايا فيما بينهما وكانوا من تحت سلطان واحد. كذلك اهتم العرب بعد فتح مصر اهتماماً كبيراً بأمر حامية مصر وحظيت الإسكندرية باهتمام كبير. وكانت حامية الإسكندرية أو رباطها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان اثنى عشر ألفاً من الجند العرب. ولكن قائد هذا الرباط كتب إلى والى مصر حينذاك - عتبة بن أبى سفيان (٤٣-٤٤هـ) - يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم. وبالرغم من الطابع شبه المستقل الذى كانت تتمتع به الإسكندرية حتى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى، إلا أن تعريب مجتمع الإسكندرية سار فى نفس الخط الذى سار فيه تعريب مصر كلها. إذ أخذت مصر بعد الفتح العربى لها تفتح عينيها على العروبة والإسلام وأخذت تندمج فى مجموعة الشعوب العربية. بل أن مصر أصبحت بعد ذلك قاعدة

لانتشار الثقافة العربية الإسلامية في شمال أفريقيا ومن بعدها في الأندلس، وكانت الإسكندرية هي الباب الرئيسي لعبور تلك الثقافة إلى غرب العالم الإسلامي، أو لعبور ثقافة الأندلس وشمال أفريقيا إلى مصر وشرقي العالم الإسلامي - ويعد أن ساد العرب البلاد المختلفة حربيًا وسياسيًا لم يكن من الطبيعي أن تظل لغة العرب وثقافتهم أجنبية غريبة على أهل البلاد المفتوحة وأن تكون لغة أهل البلاد المفتوحة غريبة على العرب - وهي مصر - وشهدت خلافة عبد الملك بن مروان - أخى أمين مصر - حركة التنظيم والتعديل، على حد تعبير المؤرخين العرب، فعمد عبد الملك إلى صبغ النوبة بصبغة عربية، وإلى الاعتماد على الموظفين من العرب أو الذين يتقنون العربية من أهل البلاد المفتوحة. وهكذا بدأ الخليفة عبد الملك تعريب لغة الإدارة والحسابات كما أمر قبل ذلك في سنة ٦٧هـ بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التي كان يتداولها الناس حتى ذلك الحين جنبا إلى جنب مع النقود الإسلامية. وكانت عملية التعريب طويلة بدأها عبد الملك في أخريات حياته منذ سنة ٨١هـ - وقد بدأ عبد العزيز بن مروان حركة التعريب بترجمة الأنجيل، وبعض الكتب، والمكاتبات بين البطريرك وبين ملكي الحبشة والنوبة. وأصبحت اللغة العربية لغة الدواوين في مصر بعد وفاة عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك ابن مروان، فبدأ في سنة ٨٧هـ (٧٠٥ - ٧٠٦م) في خلافة الوليد بن عبد الملك وهي ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر. ومع أن تعريب الدواوين بدأ في مصر في سنة ٨٧هـ إلا أن الوثائق البردية تدل على أن الحكومة ظلت مدة طويلة تستخدم العربية واليونانية، على حين كانت السلطات المحلية في الريف تكتب كثيرا باللغة

القبطية. وتجد وثائق ذات لغتين عربية ويونانية إلى القرن الثاني الهجرى - الثامن الميلادى بل أنه وجد «إيصال» بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦هـ عليه كتابة قبطية - وكان لتعريب الدواوين بعض الأثر فى تعريب مصر والإسكندرية، إذ أصبح للنولة العربية إلى جانب السيادة السياسية والحربية والسيادة اللغوية فانتشرت اللغة العربية وأصبحت لغة الإدارة ولغة الثقافة والفكر، ولغة التخاطب فضلا عن أنها لغة السياسة والدين.

على أن أهم عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبي الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا مما أدى إلى اختلاطهم بالأقباط اختلاطا كبيرا. فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى، واللغة التركية فى العهد العثمانى لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلها لغة الشعب المصرى. فكان اليونانيون ينزلون المدن ويصيفونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافى لم يذهب للريف إلا قليلا فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا فى بيئات خاصة وعاش اليونانيون فى مصر كأنهم جزر يونانية فى وسط المحيط المصرى الواسع. وكذلك عاش الأتراك فى بيئات خاصة فى مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركى دام عدة قرون. ولكن حدث فى عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين وكان لهذا الاختلاط أكبر الأثر فى تغلب الثقافة العربية الإسلامية فى وادى النيل وفى تعريب مصر والإسكندرية وشجع الخلفاء بعد الفتح وفود القبائل إلى مصر فكان أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى فجر الإسلام يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية

العهد الأموي، أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب الخراسانيين والأتراك في العصر العباسي، فكانت القبائل العربية تغد باستمرار إلى مصر إما مع الولاة، أو يبعث بهم الخلفاء لتعزيز الجند واستيطان البلاد. ونلاحظ أن الخلافة في عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ تخلت عن السياسة التي اتبعتها منذ الفتح العربي وهي سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالي وعن الاشتغال بالزراعة، وساعد وجود العرب في القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالمصريين وكان لهذا الاختلاط أثره أيضا في انتشار الإسلام بمصر نتيجة للزواج أو للموالة بينهم وبين المصريين. أما المقصود باختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق الولاء أو الموالة فهو اختلاطهم عن طريق الجوار والمصاهرة والعتق - وأخذت القبائل العربية تغد إلى مصر وتستقر في القرى وتصاهر أهل البلاد، ويزاد نشاط القبائل العربية في كل أرجاء مصر وحقلت الإسكندرية أيضا بكثير من حركات القبائل العربية في فجر الإسلام والعروبة في مصر، فحين اضطرت أمور الخلافة العباسية أثناء النزاع بين الخليفة الأمين العباسي وأخيه المأمون ظهر أثر ذلك النزاع في مصر وأدرك المعاصرون من المصريين أن الذين ولوا مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة، وقامت عدة ثورات ونذكر منها ثورة بني مدلج في الإسكندرية ضد والي الخليفة العباسي المأمون سنة ١٩٨ هـ، وبنو مدلج هم بطن من كنانة من عرب الشمال - وقد تم اندماج العرب بالمصريين منذ خلافة المعتصم بالله العباسي في القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي. إذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان وليا للعهد تنطوي على الاعتماد على الأتراك وعدم الثقة بالعرب أو الفرس، فلما بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ /

٨٢٢م أرسل إلى والى مصر كيدر نصر بن عبد الله يأمره بإسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم فتم ذلك - ويبدو أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين المصريين بدليل أن قرار المعتصم بصرف العرب عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل يذكر.

وتلاحظ أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان، ففى معظم شواهد القبور التى كشفت فى مقابر أسوان والفسطاط نجد أن اسم المتوفى يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن من خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم البلد أو الوطن الذى ينتسب إليه المتوفى فيكتب مثلاً فلان المصرى أو الكوفى أو الاسوانى أو الادفوى ... الخ. وعندما فقد العرب مركزهم انتشروا فى سائر قرى ومدن مصر، وتزوجوا من بناتهم، واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها. وهذا الاختلاط قوى عروية مصر فتغرب المصريون وتمصر العرب، وأصبحت العربية لغة الإدارة ولغة الثقافة والعلم والادب والفن، ولغة التخاطب والتحدث وفى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى كان غالبية المصريين أصبحوا يجهلون اللغة القبطية التى كانت اللغة القومية للمصريين حتى فتح العرب أرض مصر، وكذلك اللغة اليونانية التى كانت اللغة الوسمية منذ عهد البطالمة التى كتب بها الإنجيل الشهيد مارى مرقس الإنجيلى الحوارى أول بطرك للإسكندرية - ولا ريب فى أن تعريب مصر كلها شمالاً وجنوباً خلال ثلاثة قرون ظاهرة تستحق إمعان النظر. ولا شك

فى أنها ميزة للعرب على غيرهم - ولم يقف الأمر عند انتشار الدين الإسلامى والتعريب بل إن مصر فى زمن ميكر أى فى عصر الولاة - الذى يمتد من الفتح العربى إلى قيام النولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م - تشارك فى الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ أواخر القرن الثانى الهجرى . ومع أن جامع عمرو بن العاص فى القسطنطين كان قلب هذه الحركة النابض إلا أن الإسكندرية شاركت أيضا مشاركة واضحة فى العلوم الإسلامية وعلوم الحربية. فكانت الإسكندرية منذ القرن الثانى الهجرى - الثامن الميلادى مركزا ثقافيا عربيا مشعما، وكانت ملتقى لفقهاء المالكية المصيريين الذين نشروا مذهب مالك فى مصر - فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر. ولم يكن مذهب أبى حنيفة رحمه الله يعرف بمصر - وإمام فقهاء المالكة فى الإسكندرية - ولم يكن تفوق مجتمع الإسكندرية العلمى قاصيرا على الفقه وعلوم العربية والإسلام، وإنما كانت الإسكندرية عند الفتح العربى أهم مركز فى الشرق للثقافة اليونانية الرومانية. ولم يقض الفتح العربى على الحياة العلمية فى الإسكندرية ولاسيما فى العلوم العقلية - ومن المؤكد المام علماء الإسكندرية فى زمن ميكر من القرن الأول الهجرى بالعربية وقدرتهم على الترجمة من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية - وكان فى الإسكندرية زمن الفتح الإسلامى طبيب اسمه ابن أبحر وكان يدرس بها، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه فى صناعة الطب حين كان أميرا ويعد أن صار خليفة كذلك أرسل الخليفة الحباسى هارون الرشيد فى طلب بليطيان أحد علماء الإسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له.

هذه هي دراسة موجزة تبين كيف انتقل مجتمع الإسكندرية من مجتمع يوناني مصري إلى مجتمع إسلامي عربي وكيف ازدهر هذا المجتمع العربي بعد الفتح في أقل من قرنين من الزمان - وإذا كان تعريب مجتمع الإسكندرية قد سار في نفس الطريق الذي سار فيه تعريب مصر فلا يفوتنا أن نذكر أن مصر العربية الإسلامية أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التي نافست خلافة العباسيين حوالي قرنين من الزمان ٣٦٢ - ٥٢٧هـ / ٧٢م - ١١٧١م ثم أصبحت مصر مركزا للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدي المغول في سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م - وانتقالها إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م تلك الخلافة التي ظلت قائمة بها إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧م. وحسبنا دليلا على علو مركز مصر العربية في العالم الإسلامي العربي منذ العصور الوسطى أن نذكر قول ابن خلدون في القرن - الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي (ولا أوقر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم الإسلامي ويتبوع العلم والصنائع).